تجربة سليمان العيسى

في استلهام التراث العربي للأطفال

عبد الله أبو هيف

سليمان العيسى ابرز ظاهرة في أدب الاطفال العربي، كمّاً ونوعاً، وهو الكاتب الاكثر اتصالا بالتراث العربي واستلهامه في ادب الاطفال. وتكتسب كتابته اهمية مضاعفة لأمرين، اولهما الريادة، فهو كاتب عظيم - يحرث في أرض بكر، ولا سيما أرض التراث العربي، امام الاطفال لان كتّاباً رياديين كثيرين سبقوه في مخاطبة الاطفال، ولكنهم آثروا استلهام تراث الانسانية بالدرجة الاولى مثل كامل كيلاني وامينة السعيد وعادل الغضبان، بينما يكاد العيسى يقتصر على التراث العربي في امتداد موضوعاته وافكاره وتعابيره. وليس هذا الاستمداد نتاج تعصب بل هو في صلب رؤيته للحياة وما يريد للأطفال ان يروه وفي إطار الريادة برع العيسى في استحداث فنون أدبية لم يعتدها ادب الاطفال العربي قبله مثل فنون المسرح والشعر، اذ اقتصرت الجهود العربية على فنون القص والرواية او كادت في استخدام التراث في أدب الاطفال.

وثانيهما، التربية، فالعيسى يطوّع أدبه لحاجات التربية ويكرس جل أدبه في العقدين الاخيرين للاطفال، وفي هذا التكريس منتهى التطويع. وبقدر ما كان الادب مجال تهذيب وتثقيف او تربية للوجدان الانساني بتعبير اوسع، فان سليمان العيسى رهن هذا المجال كله بتطلّعه المشروع، وهو قصد كبير وجليل دونه المقاصد الاخرى جميعها، لقد رأى في الادب، وهذا في منطلق توجهه للاطفال، فعالية واسعة ومتعاظمة التأثير نحو ما سماه انطون مقدسي «الايمان العظيم»[1] اي الايمان العظيم بالوحدة العربية وتحقّق الذات العربية في وجود تاريخي حر ومستقبل وعزيز. وغني عن القول ان تجليات الريادة تصبّ في خدمة التربية أيضا، فقد عالج العيسى أنواع فنون ادب الاطفال طلبا لايصال وتجسيدا لفكرة، لا رغبة بتجديد او تجريب. وسنلمح دلالات ذلك تربويا اثناء التحليل. إن السعي الفني عند العيسى مظهر من مظاهر تجلية القصد اولا واخيرا. اجل لقد قالها العيسى منذ زمن هادئا يستجيب الى اقصى طاقات روحه، والى اقصى حقائق الحياة:

«الشعر والتربية.. هما المحوران الاساسيان اللذان دارت حولهما حياتي فعلا بل انهما في حقيقة الامر محور واحد.. يتلاقيان في كل شيء ولا ينفصلان، ينبع الواحد من الآخر ليصب فيه، ويتكلم احدهما ليجد صداه في الآخر»[2].

عند سليمان العيسى التربية هي مصداقية الفن، أعني التربية بمعناها التثقيفي الشامل، الذي لا بد منه للتكوين الانساني وتغذية الروح بما يجعلها اقدر على الاسهام في بناء الحياة.

استخدام التراث:

لجأ العيسى الى التنوع والغزارة في مخاطبة الاطفال، فكتب لهم القصيدة والنشيد والحكاية والمختارات والحوارية التمثيلية المدرسية والمسرحية في اطار الشعر، وكتب لهم الحكاية والقصة والمختارات في اطار النثر. وكان للتراث نصيبه الوافر فيما كتب ونستطيع ان نصفه فيما يلي:

الشعر:

١ - «شعراؤنا يقدّمون أنفسهم للاطفال» وهي وسيلة تقع في عشرة أجزاء تضم بعض اعلام الشعر البارزين في الأدب العربي اختيروا من أجود المواهب وأعمقها تأثيرا في الاجيال القديمة ويقدمهم العيسى للاطفال بلغة معاصرة مع مختارات من شعرهم.

٢ - «غنّوا يا اطفال»، وهي مجموعة الأناشيد والقصائد الكاملة في عشرة اجزاء، وفيه الكتابات التالية:

أ - نشيد اسامة: عن اسامة بن زيد.

ب - السياب يقول للاطفال، عن بدر شاكر السياب.

ج - فنان عظيم يتحدث الى الصغار: عن سيد درويش.

د - ابو فراس الحمداني يقدم سيفه للأطفال: عن ابي فراس الحمداني.

٣ - مسرحيات غنائية للاطفال، وهي مجموعة المسرحيات والحوارات والتمثيليات المدرسية والحكايات، وفيه النصوص التراثية التالية:

أ - الاطفال يزورون المعري: عن ابي العلاء المعري.

ب - احكي لكم طفولتي يا صغار: عن ولده الشاعر الشيخ احمد.

جـ - المتنبي والاطفال: عن ابي الطيب المتنبي.

د - الاطفال يزورون تدمر: عن زنوبيا وتدمر.

٤ - حكايات تغنى للصغار، وهي مجموعة تضم خمسا وعشرين حكاية شعرية.

في النثر:

١ - ثلاث قصص من تراثنا، كتبت بلغة جديدة وهي: ابن الصحراء، لبيك ايتها المرأة، الحدث الحمراء.

٢ - قصتان من التراث الشعبي وهما: «علي بابا والاربعون لصا» «ومصباح علاء الدين».

المفاهيم واسلوب الاستخدام:

يتدرج العيسى في استخدامه للتراث فهما واسلوبا ما يملي عليه القصد من مجرد الشرح والتعريف كما في «شعراؤنا يقدمون انفسهم للاطفال» الى أبلغ معاني الاستدعاء الفكري والفني كما هو الحال مع مسرحية المتنبي والاطفال». ولعلنا نميز هذه المفاهيم والاساليب من خلال مناقشة القصد عند سليمان العيسى.

القصد والتراث:

غالبا ما يرى سليمان العيسى التراث بحد ذاته، والمعمول في ذلك هو المنظور القومي. فالتراث هو العمود الفقري للرؤية المعاصرة، والعيسى نفسه ابن بارّ للتراث، منه انطلق وبه يستزيد قوة ونماء. وبهذا المعنى لا يتوقف فهم التراث عند العيسى على استدعاء التراث شخصيات وحالات ومواقف بل غالبا ايضا ما يعيد التراث انتقاء واستعذابا لجلاله وقدره وحضوره. لقد حفظ العيسى القرآن الكريم وديوان الشعر الجاهلي منذ ان كان في السادسة من عمره على ضفاف نهر العاصي في قرية «النعيرية» ولا يزال الى يومنا هذا، امينا لنصاعة ما حفظه يعيده ويستعيده.. يستأنس به مكوّناً من مكونات شخصية طامحا الى تكوينه من جديد في روعه وكأنه روع قارئه الطفل، ان التراث محط الرجاء عند العيسى وسبيل المرء الى الهوية فلا وجود دون تراث، ولعل ابرز خلاصة في تجربة العيسى هي ان الوجود العربي ناقص ما لم يستكمل صلته الحية المتينة بتراثه، فالتراث يبدو قصدا بحد ذاته او هو كالقصد، يعين على رؤية، ويوطد بصيرة ويصلّب الارض التي يقف عليها الاطفال نحو وجود قومي.

ليس التراث مظهرا او عرضا بل حقيقة تبرهن على قيمتها في حياتنا المعاصرة باستمرار، دلالة على الايمان العظيم بالوحدة القومية والتطور وعونا على ممارسة هذا الايمان العظيم في نفي اليأس ونفح المعاصرين معنى الوجود واشاعة التفاؤل بالنصر والحياة الكريمة. وفي هذه الاستشهادات المأخوذة من مجموعته «شعراؤنا يقدمون انفسهم للاطفال» وهي مكتوبة على السنة الشعراء اجابة على حقيقة التراث الباقية:

- **يقول البحتري:**

«انه تاريخنا الحي المتصل الذي ينبض الان حارا قويا فيكم أيها الاعزاء الصغار»

(ج٢ - ص٤)[٣]

- **يقول المتنبي:**

«كنت صوت العروبة، ووتر الصحراء، وما أزال. احفظوني يا صغاري

ان قصائدي ما تزال تهزّ آباءكم، وتملؤهم حماسة ورجولة

انكم بحاجة اليها في كل زمان ومكان، ولا سيما في هذه المرحلة التي تخوضون فيها اخطر المعارك مع اعداء امتنا العربية الخالدة»

(جـ٢ - ص٢٣).

- **يقول ابو فراس الحمداني:**

«ايها الصغار الاحباء

ستبقى امتنا تتجدد بكم انتم.

ويكفينا نحن ان نترك لكم سيرة طيبة، وصفحات مشرقة في التاريخ».

- **يقول الشريف الرضي:**

«نظمت قصائد كثيرة في موضوعات مختلفة كان ابرزها الفخر والاعتزاز بالنفس، والطموح الى المجد. ولم يكن هذا المجد الذي اطمح اليه الا رؤية الدولة العربية تعود الى وحدتها وقوتها وتكف عنها غارات المغيرين، وسيطرة الطامعين من الغرباء».

(جـ٣ - ص٢٧).

- **يقول جرير:**

«ما أجمل ان يتصل الماضي بالحاضر ونشعر اننا باقون في هذه الارض..»

(جـ٥ - ص٢٤).

- **يقول الاخطل:**

«ولكن الدين لم يقف حاجزا في يوم من الايام بيني وبين ابناء قومي فنحن جميعا ننتمي الى العروبة. ونحن جميعا شعب واحد وتاريخ واحد وشعور واحد».

«ولكن لا بأس ان تدربوا ألسنتكم على هذه اللغة العربية الجميلة منذ الصغر. انها لغتنا الحية الخالدة التي تربط بيننا في الماضي والحاضر وتحفظ لنا حضارتنا وامجادنا».

اجل كأن التراث قصد بحد ذاته، ولكنه قصد بالقدر الذي يجسد الحقيقة القومية الخالدة، حقيقة العروبة التي ينبغي ان يؤمن بها الاطفال، مثلما آمن بها العيسى ووهبها عمره وصارت قضيته وقضية كل العرب شعراء وابطالا رجالا ونساء صغارا وكبارا، الذين استلهم مواقفهم مؤمنين يجسدون ايمانهم في حياتهم كلها.

ما هو التراث؟

ينظر العيسى الى التراث نظرة انتقائية، فالتراث عنده هو الوجه المضيء من حياة الأمة العربية في كل عصورها مع الاحتفاظ بأهمية خاصة للعصر الاسلامي الاول، فلم يعرف عنه استلهامٌ لتراث العصور القديمة او العصر الاسلامي المتأخر عندما تناهبت الدولة العربية العناصر الغربية والاجنبية بعد القرن الخامس صراحة، الا لماما.

التراث عند العيسى هو المثل الاعلى للعربي، وهو ما يعين على تحقيق الوجود الذي كان وسيكون. لقد كان العيسى واضحا منذ اقبل على استلهام التراث: الأبرز والامثل، واذا شاب الابرز

والامثل بعض شائبة فانه ينقيه ليضيء. وينفع في بناء الذات، اذن هي نظرة انتقائية تربوية تعيد التراث المضيء والنافع وتستعيده فتخلصه مما يجانب المضيء والنافع في نقل او شرح او تفسير او اعادة كتابة.

ينقل العيسى التراث اذا كان صالحا مؤدّياً قصده، أو يشرحه او يفسره او يعيد كتابته ليكون صالحا مؤديا قصده، وهكذا تعامل العيسى مع الأوجه والنقاط والاسماء والمواقف والمراحل المضيئة، ولم يقدم على معالجة سوى ذلك، وهذا ما يصب في مآثره الفعالية العربية الناهضة ويكامل التأثير في الحياة القومية.

ونستطيع ان نرتب اختيار التراث عند العيسى وفق ما يلي:

١ - الشخصيات الكبيرة والفاعلة في زمنها ولا سيما الادبية مثل الشعراء والموسيقيين والقادة.
٢ - المواقف العربية الساطعة في واقعة او حادثة كما هو الحال في «بطولات عربية».
٣ - الآثار والمدن فيما تحكيه او تشير اليه من نوائب وانجازات.
٤ - اللغة العربية بأصالتها وقوتها وتجسيدها للدلالة القومية على نحو وجودي فريد كما هو الحال في تعامله مع بعض الشعراء او في اسلوب استخدامه للغة.

التعامل مع التراث:

قلنا، التراث عند العيسى قيمة بحد ذاته وقصد، وينبع استخدامه من غايات تربوية، فالتربية هي مصداقية الفن.

لجأ العيسى الى التنوع والغزارة في مخاطبة الاطفال، فكتب في اجناس واضحة او متداخلة او في اشكال اخرى من الكتابة لا تنطبق عليها اسماء الاجناس، على ان العيسى لا يعترف بالتصنيفات المهم هو انه يكتب والنقاد يصنفون، هو يكتب وللتراث نصيبه الوافر فيما كتب ويكتب، وربما كان ما كتبه العيسى في غالبيته تراثا.

قدم الشعراء والشخصيات والتاريخ والمدن والآثار للاطفال من خلالها وضمنها قضيته الكبرى، قضية الوجود العربي، وانتصار المستقبل.

كتب العيسى التراث مصفى او منقى، ونلمح أوجه التراث فيما يلي:

١ - التراث بطريقة خاصة:

لا تفي مقدمة العيسى لمختاراته في كتاب «شعراؤنا يقدمون انفسهم للاطفال» بمقاصده كلها، وبطريقته كلها. انه يجمل حيث ينبغي ان يفصل، ويوحي حيث ينبغي ان يصرّح. وقد وصف العيسى عمله على هذا النحو:

«ليكن حديثك عن هؤلاء الشعراء رشيقا ناعما، اشبه بقطرات الماء الصافية التي نرشفها» (جـ١ - ص١٦).

والحق أن حديث العيسى عن هؤلاء الشعراء كان قاسيا حينا، ورشيقا ناعما حينا آخر، ولكن في الأحوال جميعها لم يفارق رؤيته الخاصة، فهو يقدم التراث على طريقته - هناك تفاوت في عدد الصفحات، وهناك موقف مسبق يفسر من خلاله ما يرى او يضمن، فقد جعل الفرزدق يخجل من نفسه[٤] لانه شاعر الهجاء والنقائض، «وحبذا لو صرفنا - الكلام للفرزدق عنه وعن جرير - عبقريتنا الشعرية الى موضوعات اجدى وانفع» (جـ٢ - ص٩). ويضيف على لسان الفرزدق في الصفحة نفسها:

«الحق اني لا احب ان تقرأوا هذا الهجاء ايها الصغار، ولا تحفظوه.

وجعل جريرا ينكر شعره فلن يبقى منه شيء للتاريخ سوى ما يهتم به الباحثون المختصون» (ج٥ - ص٢٣).

ولدى تقديم المعري لم يخف اعجابه بشاعريته على نفوره من افكاره ونمط حياته، ولكنه يعجب به لأنه يمثل زهو اللغة العربية والفكر العربي في مرحلة من المراحل لذلك كتب عنه ايضا مسرحيته «الاطفال يزورون المعري» ثم لم يجد شيئا عند المعري في سيرته للاطفال فاختار له شعرا من دالية فيها بعض اعجابية من الحياة:

«ولو اني حسبيت الخلد فردا
لما احببت بالخلد انفرادا»

هو يريد ان يعبر عن إعجابه بالمعري فحسب وفي المسرحية اقتصرت اشارته بالمعري على بضعة اسطر من «رسالة الغفران» تنشق منها التفاحة وتخرج منها حورية رائعة الجمال، فيندهش ابن القارح ويتعجب من قدرة الله، ولعله اختار هذه الاسطر للأطفال لتخييلها امام الاطفال على لسان المعري فهم كموّال للزمان:

«مرحى للصغار
مرحى للبلابل
فجروا النهار
في قلبي جداول»[٥]

انه تقديم مجاني للاطفال لمجرد انه معجب به، على ان ثمة ما يمكن ان يقدم للاطفال في سيرة المعري وقد اغفله العيسى لانه لا يرى التراث الا على طريقته.

في تقديمه للشريف الرضي، وهو شاعر مجيد وشخصية دينية كان لها مكانتها في الفكر السياسي الاسلامي، مضى العيسى عن وضعه التاريخي واكتفى بذكر تسميته نقيب الاشراف «توليت وظيفة كبيرة كانت تسمى» «نقابة الاشراف» وهي منصب ذو طابع ديني لا يناله الا الذين يحصلون ثقافة رفيعة ويتحلون بالاخلاق والفضائل العالية» (جـ٣ - ص٢٥).

وهكذا، اكتفى العيسى بالعنوان دون الدخول في عناصر السيرة او بعض عناصرها، ودون الدخول في ملابسات التاريخ. ها هو ذا التراث يقدم في آنية ضئيلة.

لا يريد العيسى ان يخوض في تناقضات التاريخ ومشكلات التراث حرصا على صورة زاهية ومثال «عامر بالأمل». ومرد ذلك، في بعض دواعيه، الى انغمار رؤيته التراثية بوجهة نظره وهو الكبير صاحب القضية الكبرى بهمومها الكبيرة.

لقد قدم من الخنساء تعريفا بها، وهي مثال البطولة والشهامة والتضحية، بعض ابيات في الوصف لا تمثلها لأن شعرها لا يناسب الأطفال.

٢ - التربية والصدق التاريخي:

اجل، يقتطع العيسى من التراث زهوه وبهاءه ويفسّره على طريقته. وهو يفعل هذا عامداً ليخدم الفكرة التربوية المرادة. إنه لا يقدم للأطفال الا ما يراه مفيداً ولو جانب التاريخ او محتوى التراث. ووجهة نظره هي الا نصدم الطفل بما هو سيء، او ظالم او مشين في ماضيه لانه سيواجهه عندما يكبر. وتكمن رؤية العيسى في تغليب التربية على الفن حيث يتسلح الطفل بقوة التراث وتاريخه العربي. ولعل وعيه المبكر بفضائل ماضيه الزاخر بالقيم والمثل والكرامة والحضارة سيحميه من الفاجع المنتشر في هذه المرحلة او تلك في هذه السيرة او تلك.... التربية هي الأبقى متحالفة مع هدف الفن نحو تسليح وجدان الطفل بالمثال المضيء والصورة المشرقة. أما الصدق التاريخي فيأتي في المرحلة التالية وقد انخرط الطفل في حياة قومه وأصبح اقدر على الوعي والإدراك.

وفي تقديمه لابن زيدون تعبير عن فكرته:

التربية والصدق الفني، ولا بأس ان يجمل جوانب السيرة التي تشتعل بحسد الحكام والوزراء ووشاياتهم واحقادهم إجمالا:

«وبقيت كذلك أوزّع حياتي بين الشعر والسياسة.. متنقلا بين اشبيلية وقرطبة حتى أدركتني الوفاة وانا شيخ كبير أحاول تهدئة ثورة نشبت في اشبيلية وكانت وفاتي في عام ٤٦٣ هجرية» (جـ٤ - ص٢١).

ثم ينوي ان يعتذر عما اشتهر به: **قصة حبه لولادة**، ويقرر ان يمر بها مرورا سريعا ويختار بعض ابيات قصيدته:

«اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والافق طلق، ووجه الأرض قد راقا».

انها خبرة منهجية وتربوية معا، ولم تكن حلولها ميسورة عند العيسى. لقد كان يتجاهل كثيرا، ويعرض او يضمّن ما يروق له معتقدا انه يرتاح ويريح الآخرين.

اخضع العيسى التراث لنظراته التربوية، ولكن التربية وسيلة متغيرة، وقد لا توافي التاريخ او الفن. وهنا تكمن معضلة أساسية في معاملة العيسى للتراث. ثمة محاولة لتقديم مختارات من الشعر الحديث هي محاولة دار «النورس» مع شعر نزار قباني ومحمود درويش وسعدي يوسف وأدونيس[٦].

واذا قارنا صنيع العيسى بهذه المحاولة فان ما فعله العيسى يتفوّق على المحاولات السابقة المختلفة في تقريبه الشعر من الاطفال وفي تفسيره الخاص للسيرة والشعر معا. بينما اختارت «دار النورس» أصعب الشعراء الحديثين على الكبار، ربما باستثناء نزار قباني، فكيف يتواصل معها الصغار. انه شعر يحتاج الى تربية مستمرة لقراءته. اما شعر القباني فلا أعتقد أنه مفيد للاطفال جملة او تفصيلا.

تفتقر محاولة دار النورس للهدفية او القصد اولا مثلما تخلو من المناخ الذي يعين على الإيصال لجمهور محدد مثل الاطفال والفتيان، ثم ينتزع واضعوها ابياتا من قصائد بعيدة عن سياقها الذي كتبت فيه وبعيدا عن دلالاتها التي تؤديها، مما يجعلها نصوصا مبهمة مستغلقة يصعب على الأطفال والفتيان ان يتواصلوا معها.

اما جهد العيسى فيتخلص من هذه الملاحظات الاولية لتتبدى الخبرة التربوية والمنهجية في النظرة للتراث.

٣ - ايثار الغنائية:

ينفر العيسى في رؤيته للتراث من الفعلية التي بها يكون صراع وحركة تاريخ فالتراث عنده قيم ثابتة.

التراث جميل ونافع او هو لا يأخذ منه الاّ الجميل والنافع ليغنّيه، ففي ديوانه «غنّوا يا اطفال»[٧] ثمة أناشيد أربعة هي: الاول نشيد اسامة «عن بطولة اسامة بن زيد، قائد الجيش والراية».

والنشيد الثاني هو «السياب يقول للاطفال» عن الشاعر المكافح من اجل الجياع والمظلومين، والمعتز بريفيته وقريته من اعمال البصرة.

والنشيد الثالث هو «فنان عظيم يتحدث الى الصغار» عن سيد درويش الفنان الثوري الذي كرس فنه للعمال والشباب والفلاحين ضد البؤس والتخلّف، لأنه فنان يتألم لآلام الجماهير ويغني لانتصاراتها:

«الشعب الرائع يا أولاد
الصانع أمجاد الامجاد
ما زلت مع الفقراء اعيش
للحب أعيش
للحن اعيش
اسمي: سيد درويش» (جـ٧ - ص٢٥).

والنشيد الرابع هو «ابو فراس الحمداني يقدم سيفه للاطفال» عن البطولة ايضا حيث لا يجد العيسى في نسيج حياة شاعره العربي الا البطولة، يحيي الشاعر القديم الناشئة العرب الذين يصنعون نهار الأمة العربية ويهدي سيفه الى الأطفال لتستمر بطولة الأجيال، ويطلب منه الأطفال أن يسطع ضوءاً عربياً وان يعلّمهم لغة الفرسان ونجدتهم.

ويقول ابو فراس:

«انتم جنودي الآن
يا ايها الشجعان
فليهدر البركان
ولتسمع البيد
فيهتف له الاطفال بحماسة:
يا شاعر السيف الذي
لم يعرف الهوان
اكتب به اكتب بنا
قصيدة الانسان» (جـ١٠ - ص١٣).

ولا يتوقف الغناء عند حدود الأناشيد بل يتعداها الى بقية نتاجه النثري والمسرحي الشعري، فما يشغل بال العيسى هو القيم الباقية في التراث القديم والحديث. وهذا واضح في مسرحياته الغنائية للأطفال وفي حكاياته الشعبية المقتبسة او حكاياته التاريخية المستلهمة في المسرحيات او الحواريات اذ تخلو من الصراع او الفعلية. كتب العيسى حوارية «الأطفال يزورون المعرّي» إعجاباً بهذا الشاعر العظيم.

والحوارية الثانية هي «أحكي لكم طفولتي يا صغار» عن والده الشيخ أحمد العيسى تقديراً لجليل أعماله، وفضائل شخصيته النضالية مما يدخل في إطار تكريس التراث. وقد قاده احترامه لشخصية والده الى كتابة أكثر من عمل يصف فيه عمله الوطني والقومي الريادي[٨] ويرى العيسى ان دور والده تنويري حيث أشاع بذرة الثقافة والعلم وروح الأمل في وسط اجتماعي فقير.

والحوارية الثالثة هي «المتنبي والاطفال» عن الشاعر العظيم أبي الطيب المتنبي في زيارة معاصرة الى أرجاء الوطن العربي، يعرض فيها ملامح شخصيته الباهرة من منظوره الخاص، ويدعو فيها الى حلم الأطفال.. حلم الوحدة العربية.

يتألف المسلسل الشعري الغنائي من اثني عشر مشهداً يلتقي خلالها أطفال العروبة في مختلف أقطارها لينشد في الختام مع الاولاد:

«نحن طلائعك الثوريه»
يا أرض الأحرار.
نرفع رايات الحريه
نهتف للأحرار
عاشت ثورتنا العربيه
ولتحضّر الدار
ولتحضر الدار
ولتبق الشمس العربيه
ساطعة الأنوار
ساطعة الأنوار
ساطعة الأنوار (٤٩٣).

والحوارية الرابعة هي «الأطفال يزورون تدمر» عن زنوبيا والكفاح المستمرّ ضد الاجنبي من ارتباط الماضي بالحاضر ومن أجل وحدة الأمة وتراثها العظيم:

تـــدمر الخـــالـــدة بيتـــكم من قـــديم
أمـــة واحـــدة وتراث عظـــيم (٥٢٥)

يعاهد الأطفال بالدم أن يحموا تدمر والأمة، وان يعطوا كل ما يملكون وان يبنوا وحدة الشعب العظيم وان يصلوا الآتي بالماضي العظيم.

وتدعو زنوبيا الأطفال للطواف في تدمر واستعراض الامجاد ثم تنشد معهم بصوت هادر:

الى الأمـــام الى الأمـــام

نستعرض التاريخ والايام
نرى هنا ما شاده اجدادنا العظام
الى الامـــام الى الامـــام
نبني كما بنوا وفوق مـــا بنوا
نعيش للعطـــاء نعيش للفـــداء
للوحـــدة الكـــبرى الى الأمـــام (٥٢٧).

وفي كتابته الجديدة للتراث الشعبي يلح العيسى على القيم الثابتة على نحو غنائي واضح ويعتمد على إطار الحكاية الشعبية وحده لينفحه المعاني والقيم.

في قصة علاء الدين والمصباح السحري «تمجيد للعلم وقوة الحب الجبارة وتحذير من الاوهام. فالمجد للآتين والمجد للكفاح والمجد للعلم».

ودارت الايام يا أولاد
وأزهر المصباح
وحقق العلم رؤى الاجداد
حققها الكفاح
في كل يوم يسمع الصغار
غرائب اختراع
في البر في الفضاء في البحار
في أبعد البقاع
... ...
في كل يوم مركب جديد
يغزو مدارنا
صرنا ضيوف القمر البعيد
وصار جارنا
... ...
ولم يزل في العالم المضيء
دنيا من الاسرار
ترنو الى الجيل الذي يجيء
تنتظر الصغار
. . . . . .
المجد للآتين والتوفيق
المجد للآتين
تبقى حكايات على الطريق
دنيا علاء الدين[٩]

ينتصر العيسى للقيم ويغني لها ولا يمضي الى تفاصيل الحكاية وأعماقها القديمة بل يبث من خلال إطارها العام ارادة جديدة ومعنى جديدا. وفي قصة علي بابا والأربعين لصا إيحاء مستمر وتصريح علني بقيمة العمل والبذل والذكاء والوفاء ودعوة الى العدل والاشتراكية عندما يؤثر علي بابا انفاق الكنز على الصالح

العام. فقد هتفت الاصوات الرخيمة العميقة وكأنها تنبع من جدران الدار كلها قائلة:

«مهلا يا علي بابا!!-مهلا أيها العروسان الجميلان!
يبدو أنكم نسيتم أنفسكم في غمرة الفرح..
ونسي الحطاب القديم اننا هنا.
كنز المغارة الثمين ليس ملكا لكم.. ايها الرفاق
والا.. فما الفرق بينكم وبين اللصوص الذين
ذهبوا الى غير رجعة؟
الم نقل لك هذا من قبل
يا علي بابا.. يا صديقنا القديم؟
الم نحذرك من طريق الفساد؟
الكنز للحطابين جميعا.. للفقراء جميعا.. فرفاقك
المحرومون الضائعون.. أيها الحطاب الطيّب الاصيل
لكم فيه نصيب
للحذّاء العجوز ولكل حزّاء مثله فيه نصيب
لمرجانة ولكل فتاة مثل مرجانة فيه نصيب
ألفوا مجلسا لادارة الكنز وأنفقوه في عمارة هذا
البلد ورخائه وسعادته. عندئذ تنعمون
انتم بالسعادة الحقة والرخاء الصحيح
سنودعكم الآن.. ولكننا سنظل معكم
سنظل الى جانبكم.. ايها الناس الطيبون..»[١٠]

وهذا الدفق الغنائي الذي عمل على أجنحة القيم الثابتة هو ما يميز سلسلته القصصية «بطولات عربية» فهي قصص تمهد لمناسبة قصيدة والقصائد من عيون الشعر البطولي في التراث العربي.

قصة نخوة عربية «أو لبيك.. أيتها المرأة» عن تلبية المعتصم لنداء المرأة العربية في عمورية «وامعتصماه» تمثيلا لقصيدة الشاعر العربي الكبير أبي تمام:

«السيف أصدق أنباء من الكتب
في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعب

يشرح العيسى المناسبة من داخل القصيدة ويبث أيضا في شرحه قيم الشجاعة والنجدة والمروءة والدفاع عن الوطن. يقول العيسى في سياق السرد:

وتحرك المعتصم وتحرك جيشه العظيم وراءه تعلوهم رايات الكرامة وتدفعهم النخوة العربية وكلمات الخليفة تتردد في أسماعهم وفي قلوبهم: أن الصفعة التي نزلت على وجه أختنا البعيدة هي صفعة على وجوهنا جميعا وان السكوت على الاهانة جبن وعار..

كان شعار الجميع نصرة المظلوم وتأديب المعتدي.

«ان الكلمة التي اطلقها المعتصم هي الكلمة الحق: من يسكت على اهانة يتلقاها من عدو يسكت على ضياع ملكه وشعبه ومقدساته جميعا»[١١].

يغلب على السرد الانشاء الذي يسربل الصراع في ثنايا الكلمات وكأنه تعريف بمشهد لا إدارة لفعلية تنمو وتصطرع. ولا تختلف قصة «الحدث الحمراء» عن سابقتها فهي شرح آخر لمناسبة قصيدة المتنبي العظيم:

أتوك يجرّون الحديد كأنما
سروا بجياد ما لهن قوائم

ان القصيدة تمجيد لبطولة سيف الدولة ضد الروم في معركة مشهودة إنقاذا لمدينة «الحدث». ولا يقع المرء في القصة على أكثر من وصف. هذا التمجيد ومقدماته كما هو الحال في هذا الشاهد:

وما كادت شمس الضحى ترتفع
في السماء حتى اخذت جموع الاعداء
تتضعضع وتتراجع الى الوراء وقد
صدمتها المفاجأة واختلط الحابل
بالنابل وكان جنود العدو يتساقطون
تحت ضربات السيوف وطعن الرماح
وهم لا يدرون ما يفعلون. وفي هذه
المعمعة، برز من ورائهم كمين
الفرسان الذي كان بانتظارهم وراء
التلال المجاورة فاذا هم بين فكي
الجيش العربي يحاولون الفرار بأية
وسيلة، يطلبون النجاة بأي ثمن
قبل أن يتمكنوا من اتخاذ أية بادرة
لتنظيم صفوفهم
وعند الغروب كانت معركة الحدث
قد انجلت عن هزيمة العدو هزيمة
منكرة. قتل منهم من قتل وأسر منهم
من أسر حتى ابن الفقاس نفسه كان
ممن وقع في الاسر واقتاده سيف
الدولة الى مقر قيادته مع عدد كبير من
أنصاره وقادة جيشه[١٢]

يسعى العيسى في غنائياته أن يشرح التراث أولا وان يفسره على طريقته ثانيا. وربما لجأ الى الغناء ليكون التراث قريبا من مدارك الاطفال سهل الاداء في القراءة او اعادة الانتاج عبر الوسائط الأخرى مثل المسرح أو الاذاعة أو اللقاء.

٤ - التدرج في استلهام التراث:

لا يتعامل العيسى مع التراث على وتيرة واحدة أو ضمن اسلوبية واحدة، فهو يتدرج في استلهام التراث فهما وأسلوبا حسب ما يمليه عليه قصده وسلم القيم من مجرد الشرح أو التفسير البسيط كما هو الحال في مختاراته: «شعراؤنا يقدمون أنفسهم الى الاطفال الى الاعادة واضفاء تفسيره الخاص كما هو الحال في حواریاته وحكاياته الى أبلغ معاني الاستدعاء الفكري والفني كما هو الحال في مسرحيته أو حواريته «المتنبي والأطفال» حيث يقدم رؤية معاصرة لشخصية المتنبي ولا سيما البعد القومي. على أن العيسى يضع غالبية أعماله في إطار تنظيم الطلائع مما يساعد تنظيمات الاطفال على تنفيذ نصوصه في اعمالها ونشاطاتها وهذه مزية طيبة على سبيل المثال: مجموعة

طليعية تدعو المتنبي للزيارة فيقبل من عصره ويزور تنظيم الطلائع في كل قطر عربي وتقام له الاحتفالات واللقاءات ويعقد المؤتمرات الصحفية ويتحدث في مختلف القضايا الفكرية التي تشغل وجدان الانسان العربي المعاصر. لا شك ان صوت العيسى شاعر الكبار، شاعر القومية هو الذي يتحدث بلسان الاطفال وهو لسان مفعم بالأمل والارادة والانتماء والصبر على المكارة ومجادلة النوائب والشدائد والمحن. انه صوت الهموم التي لا بد ان تصدم الطفل فيما بعد ولكنه نداء الشاعر الذي ينسى وهو يخاطب الاطفال حقيقة الوجود المهدد. وهذه معضلة أخرى لا تزال قيد الاختبار في مخاطبة الاطفال.

٥ - التراث ملاذا:

يلوذ العيسى بالتراث كلما احتاج الى دليل على صدق نظرته وعميق إيمانه وصحة اعتقاده.

لم يكتب العيسى عن شخصية سلبية ولا عن ظلام التاريخ في مرحلة ما، فهو لا يرى الا الإيجابي وهو يستحضر التاريخ أو يتعامل مع التراث. لقد اعتمد شعراء عرب معاصرون شخصيات منبوذة أو مشبوهة مثلما فعل أدونيس او خليل حاوي أو البياتي، ولكن العيسى، يتنكب ذلك كله مستندا الى ما يدعم نظرته الإيجابية الى التراث باعتباره ملاذا (٤٠) للأسلوبية الفخمة من جهة، وملاذا للرؤية المعاصرة التي بها سيرى انتصار الأمة على عوامل الضعف فتحقّق ذاتها وتتقدم من جهة أخرى.

قيمة الفهم خاضعة عند العيسى لحضور التراث في شعره، واذا ابتعد عن التراث في موضوعه فانه يحافظ على لغته التراثية وأسلوبه التراثي، ولعل ناقداً معتبراً مثل حسام الخطيب على حق عندما قال:

«ولكن مهما قيل في قوة الايقاع وهوس الموسيقى عند سليمان العيسى فان تجربته الموسيقية بأكملها تظل في حدود الاتباعية الجديدة - ان التجربة الموسيقية - وهي خاصية متميزة عنده تكشف عن قصدية نفتقدها في الجوانب الأخرى لبنائه الفني تحمل دليلا جديدا على أن تركيبه العقلي والمزاجي والموهبي يندرج في صف القديم المجدد وهذا هو ما نعنيه حين نضعه في عداد الكلاسيكية الجديدة[١٣]».

لا يتوقف التراث على استدعائه في مواقف وشخصيات ومراحل وأوابد بل غالبا ما يعيد التراث اعادة مباشرة لذاته، فليس التراث برهانا على الايمان العظيم عند العيسى فحسب، ولكنه برهان على أن هذا الايمان قابل للتحقق لان فيه ما يجعل الايمان موضوع ثقة وموضع تأييد عندما يقدم للاطفال. وعندما أقول: ان الوحدة العربية حقيقة حية فالتراث يقدم الدليل، وعندما أؤكد أن العرب اسهموا اسهاما كبيرا في حضارة الانسان فالتراث يعين على ملموسية الحقيقة في وقائعه وانجازاته.

ثمة ملاحظة هامة في هذا الإطار، هي أن العيسى يدفع اليأس عنه عندما يحتضن التراث أو يحتضنه. يغدو التراث سلاحا في وجه اليأس وخصوصا في أدب الاطفال. في رثاء السياب نثر أوراق يأسه أمام عينيه، وفي تقديم السياب للاطفال كان العيسى متفائلا يغني للإرادة والتغيير.

ونستطيع أن نفسر تحت ظل هذا المفهوم: التراث ملاذا، غياب المنحى الاجتماعي أو معاينة حركة التاريخ لصالح القيم الثابتة المنتزعة من معترك التاريخ.

ربما عزا العيسى هذا الى تأثير التراث في الحياة الثقافية المعاصرة اولا والى أن التراث هو الحافظ للتقاليد ثانياً، ولكن مثل هذه المعاينة تستلزم استلهام التراث في حقيقته ايضا. في كتابته عن المتنبي في مسلسل «المتنبي والاطفال» بدل بعض الكلمات التي لم تعجبه في شعر المتنبي. يريد العيسى أن يقدم التراث صافيا نقيا عربيا خالصا إيجابيا. وهذه معضلة فنية وتربوية لا تزال موضع نظر.

أجل يلوذ العيسى بالتراث ليستمد منه النماء والقوة. وفي هذا الشاهد من مسلسل «المتنبي والاطفال» يلتمس العيسى الشهادة من المتنبي من مثال التراث الأزهى والأبهى، فهو شاعر عربي محبوب.

«رافع: أنت جدير بالتكريم يا عماه.
أنت جدير بالتكريم.
وينسحب أبو رافع من الصالة ويبقى المتنبي والاطفال».

تيماء: الآن.. سنسمع شاعرنا العظيم شيئا يخصنا، نغني لك نشيد الطلائع

الأولاد: (في صوت واحد)
فكرة رائعة.. فكرة رائعة

المتنبي: نشيد الطلائع.. وهل لكم نشيدخاص؟

الاولاد: نعم نعم نشيد جميل كتبه لنا شاعر عربي نحبه ويحبنا كثيرا

تيماء: ويعتز بأنه يحفظ شعرك منذ الطفولة ويعدّك مفخرة من مفاخرنا الكبرى

المتنبي: هل لي أن أعرف اسمه يا صغاري؟

رافع: اسمه: سليمان العيسى وهو يكتب لنا، للاطفال، أجمل قصائده منذ سنوات عديدة.

المتنبي: سليمان العيسى ليس هذا الاسم غريبا عني. انه صوت من أصوات العروبة التي تمتدّ في الزمن اليس كذلك؟

الأولاد: نعم صوت من أصوات العروبة التي تمتد في الزمن لتقهر الزمن يا عماه

المتنبي: بلغوا شاعركم تحيتي الخالصة، لا بد أن أراه ذات يوم وأسمعوني الآن النشيد الذي وعدتموني به (١٤٠).

يعترف المتنبي بسليمان العيسى، وكأنّه العيسى يقول لنا كتابتي تراث مثل التراث بشهادة المتنبي. انه الايمان العظيم يكفيه أن يقال عنه إنه شاعر العروبة وانه صوت من أصواتها. هذا الايمان العظيم هو الذي يميّز تعامله مع التراث، وقيمته في هذا المجال تربوية كبيرة نحتاج اليها في العمل مع الاطفال بكل تأكيد.

لقد صاغ العيسى تجربته على هذا النحو وصقلته تجربته على هذا النحو. انه شاعر كبير وعقل كبير وثروة كبيرة، كرس فنه لفكرة

كبيرة هي الفكرة القومية.

لا شك ان فنه لا يخلو من السلبيات الناتجة عن معضلات استلهام التراث تربويا وفكريا ولكنه فن أصيل يفيد ويغني.

الهوامش

(١) أنظر العيسى سليمان: الكتابة أرق - شعر - نثر - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٢ - ص٣٧٩. وفي الكتاب وقفات مع سليمان العيسى شاعرا وانسانا باقلام عدد من الكتاب كتبت تحية وتقديرا لمناسبة فوزه بجائزة أدباء آسيا وافريقيا - اللوتس في العام نفسه.

انظر ايضا: العيسى، سليمان، «دفتر النثر» - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨١ - ص١٢. يقول تأكيدا على منظوره القومي التربوي:

ليست الكتابة الا الخطوة الاولى في العملية الفنية القومية التربوية الضخمة التي احاولها وحدي وانا اشعر في كل لحظة أنني بحاجة الى عشرات الأيدي والأقلام والأصوات.. عشرات المشاركين في العملية الى جانبي.. ويعملون معي.. في صمت وحب وصبر.. حتى نستطيع أن نقترب من هذا الحلم العظيم الذي أمد يدي اليه: خلق عالم جديد للأطفال ودعني من هذه البرامج الهزيلة المريضة التي تعرض عليهم حتى الآن.

(٢) نفسه: ص٣٤٨.

(٣) انظر: العيسى سليمان «شعراؤنا يقدمون انفسهم للاطفال» دار الآداب للصغار بيروت - بدون تاريخ. والمجلد يجمع بين أجزاء عشرة ولا يحمل رقما متسلسلا للصفحات. ويكتفي الناشر بأرقام كل جزء على حدة. إنها مخاطر العمل السريع فيما يتعلق بتوضيب الكتاب المطبوع.

(٤) يقول الفرزدق عن نفسه:
لا شك انني لن اختار شيئا من قصائد الهجاء. لأني لا أريد أن يسمعها الكبار فكيف بالصغار (جـ٥ - ص١٠).

(٥) العيسى - سليمان «مسرحيات غنائية للاطفال» - المجموعة الكاملة - دار الشورى بيروت ١٩٨٢ ص١٠٨.

(٦) نشرت دار النورس هذه المختارات ببيروت خلال عام ١٩٨١ في طبعات مختلفة.

(٧) العيسى سليمان «غنوا يا أطفال» - المجموعة الكاملة - دار الآداب للصغار بيروت ١٩٧٨، والديوان يجمع بين عشرة أجزاء ايضا بأرقام منفصلة لكل جزء.

(٨) نذكر من هذه الاعمال «قصة وائل يبحث عن وطنه الكبير» المكرسة لطفولة الشاعر، منشورات منظمة طلائع البعث دمشق ١٩٧٨.

(٩) العيسى سليمان: كتابة جديدة لقصة: علاء الدين والمصباح السحري، مجلة المعلم العربي دمشق س٣٩ ع ١ كانون الثاني ١٩٧٦ - ص٣٣.

(١٠) العيسى سليمان «كتابة جديدة لقصة علي بابا والاربعين لصا»، مجلة المعلم العربي دمشق ص٣٨ ع ١٢ كانون الاول ١٩٧٥ ص٥٥.
وتختلف هذه الكتابة جزئيا عن إعادته للحكاية نفسها عن قصة ماري ستيوارت في سلسلة أساطير وحكايات خرافية الصادرة عن ليديبرد بلندن، فلا نسمع فيها تلك الاصوات الداعية الى القيم وان كانت النهاية متشابهة (طبعة ليد بيرد دون تاريخ).

(١١) العيسى سليمان «نخوة عربية» مجلة المعلم العربي دمشق س ٣٤ ع ٣ ايلول ١٩٨١ ص٤٠ - ٤١.

(١٢) العيسى سليمان «الحدث الحمراء» - مجلة المعلم العربي دمشق س٣٦ ع١، ١٩٨٣ ص٤٢٨.

(١٣) الخطيب - د. حسام: سليمان العيسى الموهبة والفن في الكتاب المشار اليه «الكتابة أرق» - ص٤٢٨.

(١٤) مسرحيات غنائية للاطفال ص٤١٥ - ٤١٦.

دار الآداب

مؤلفات الدكتورة

نوال السعداوي

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الأرض
- امرأة عند نقطة الصفر
- أغنية الأطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقاً
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الأضعف
- مذكرات طبيبة